الرسول ﷺ متّصفًا بالعبودية في القرآن الكريم

أ. د. عبد المنعم عبد الله حسن (*)

في ظل احتفالنا بمولد الهدى ﷺ، يطالعنا الكاتب في هذا المقال بالمواضع التي وصف فيها النبي ﷺ بالعبودية في القرآن الكريم، وهي عشرة مواضع، ثم يلقي ضوءًا عامًّا على هذه المواضع، مبينًا ما فيها من عطاءات لشخصه الكريم ﷺ.

(عبْد): تهوِي هذه الكلمة بدلالتها خضوعًا وخشوعًا، وتذللًا وانقيادًا إذا أضيفت لغير المعبود جل وعلا مِنْ بشر، أو صنم، أو جاه، أو هوى، أو مال، هُويًّا يحمل الحيف والجور، والبطش والقهر، والإذلال والاستعباد، والتسلط والاستبداد، بما يوغر الصدر، ويؤلم النفس، ويؤجج الضغينة، مقترنًا هذا الهُويُّ بالخسران والهوان، والتعاسة والانتكاسة، والسخط والكره.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «تعس عبدُ الدينار، وعبدُ الدرهم، وعبدُ الخميصة، إن أُعطِي رضي، وإن لم يُعط سخط، تَعِسَ وانتكسَ، وإذا شِيكَ فلا انتقش»[1].

وترتفع هذه الكلمة نفسها (عبْد) -بدلالتها نفسها خضوعًا وخشوعًا وتذللًا وانقيادًا- في معالي العزة، ومعارج السؤدد إذا أضيفت للمعبود جل وعلا- ولا ينبغي أن تضاف إلا له وحده - فلا عبودية إلا له سبحانه ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ (مريم: ٩٣)

ومن ثمّ نهى النبي ﷺ أن تضاف هذه الكلمة لمخلوق؛ فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا

(*) الأستاذ في كلية اللغة العربية بالمنصورة.

(١) البخاري، حديث رقم (٢٨٨٧)، والخميصة: كساء أسود له علمان، وإذا شيك فلا انتقش: يعني إذا أصيب بشوكة فلا خرجت شوكته.

يقولنَّ أحدُكم عبدي وأمتي، كلُّكم عبيدُ الله، وكلُّ نسائكم إماءُ الله، ولكنْ ليقلْ: غُلامي وجاريتي، وفتايَ، وفتاتي»[٢].

إن الخضوع والتذلّل الموحي بهما الأصل الدلالي لـ(عبْد) لَهُما العزة في أَوْجِها، والرفعة في فوقها، إذا كانا لله جل وعلا؛ فالعبودية لغير الله وصمة ذل ولله شرف، وهي لغير الله خسَّة ولله كرامة، وهي لغير الله منقصة ولله كمال، وهي لغير الله معصية، ولله طاعة.

إن العبودية لله منحة ووسام، وتفضُّل وإكرام، وهبة وإنعام، ومنَّة وعطاء، وتكريم واحتفاء، يفخر بها كل عبدٍ لله كما قال الشاعر:

حسب نفسي عزًا
يحتفي بي بلا مواعيد رب
هو في قدسه الأعز، ولكن
أنا ألقى متى وأين أحب

أيُّ حرية تلك هذه العبودية في سيادتها، وعزتها ومكانتها؟

ومن ثم منَّ الله بها على الصفوة من خلقه: أنبياء، وأولياء، وملائكة، وأصفياء، فقال عن نوح -عليه السلام-: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ (الإسراء: ٣)

وقال عن أيوب عليه السلام:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ (ص: ٤١)

وقال عن داود -عليه السلام-: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ (ص: ١٧)

وقال عن سليمان -عليه السلام-:

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ (ص: ٣٠)

وقال عن عيسى -عليه السلام-:

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ (مريم: ٣٠)

ثم ذكر الحق سبحانه أن عيسى -عليه السلام- لن يأبى هذه العبودية، ولا الملائكة فقال: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ (النساء: ١٧٢)

وقال عن الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ (الكهف: ٦٥)

ونبينا محمد ﷺ اعتز بهذه العبودية، وآثرها، ووجّه أصحابه إلى أن يدعوه بها، فعن ابن عباس أنه سمع عمرَ -رضي الله عنه- يقول على المنبر: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»[٣]، واتصف ﷺ بها في القرآن الكريم.

فمع عشرة مواضع نعيش اتصافه ﷺ بها كما صوَّره البيانُ القرآنيُّ في سياقات متعددة، على النحو التالي:

الموضع الأول: قال الله تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣)

(٢) مسلم، حديث رقم (٢٢٤٩).

(٣) البخاري، حديث رقم (٣٤٤٥).

لإثبات نبوة محمد ﷺ، وأنّ ما جاء به من عند الله، لا من عنده -كما ادعى المشركون المكذبون- خاطبهم الحق سبحانه تعجيزًا لهم، وإظهارًا لكذبهم، ودحرًا لتشكيكهم: إن كنتم في شك من القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد نورًا وبرهانًا وهُدًى فأتوا بسورة من مثله بلاغة وإعجازًا، وأنتم أهلُ بيانٍ ولسان، واستعينوا بأعوانكم وآلهتكم وجميع من يساندكم ويدعمكم من دون الله ليعاونوكم، ويشهدوا لكم، إن كنتم صادقين في ادعائكم القدرة على معارضته - حيث قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾

(الأنفال: ٣١)

وفي زعمكم أنه كلام من عند محمد، لا من عند الله، وفي هذا بالغ التحدي، وغاية التعجيز، فلم يفعلوا ولن يفعلوا.

الموضع الثاني: قال الله تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤١)

الغنائم ما أُخذ من الكفار قهرًا بقتال، وقد جعل الله تعالى حِلّها خصيصة لأمة محمد ﷺ، قال تعالى:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾

(الأنفال: ٦٩)

وفي حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»[٤]. والآية الكريمة تُعْلِم وتُعلِّم المؤمنين مصارف الغنائم وقدرها، مقسّمة «خمسة أخماس، أربعة أخماسها لمن قاتل عليها، والخُمْس لخمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل: للرسول، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين وابن السبيل»[٥] مرتبطًا هذا الإعلام، وذلك التعليم بالعمل بمقتضاهما، فهذا دليل الإيمان بالله ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ وجعل رسول الله ﷺ من الإيمان «أن تعطوا من المغنم الخُمْس»[٦].

وفي البخاري: (باب أداء الخُمْس من الإيمان)[٧] وفيما أخرجه مسلم: من حديث ابن عباس (في تفسير الإيمان بالله): «وأن تؤدوا خُمس ما غنمتم»[٨].

ثم عطف على الإيمان بالله ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ (الأنفال: ٤١)

مؤمنين بما أنزلنا على عبدنا محمد من الآيات والجند والسكينة والنصر والتأييد يوم بدر الذي

(٤) البخاري حديث رقم (٣٣٥)، (٤٣٨)، ومسلم، حديث رقم (٥٢١).
(٥) معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٣٥٧.
(٦) البخاري حديث رقم (٥٣).
(٧) فتح الباري ١/ ١٥٧.
(٨) مسلم، حديث رقم (١٧).

فرق الله فيه بين الحق والباطل، يوم التقت الفئة المؤمنة والكافرة، وتجلت آيات القدرة نصرًا للحق مع قلة العدد والعتاد، ذلك أن الله على كل شيء قدير، وهو وحده المؤيد والنصير.

الموضع الثالث: قال الله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(الإسراء: ١)

إن حادث الإسراء آية تجلَّى فيها من إعجاز القدرة، وجلال الألوهية، وهيمنة القادر سبحانه على ملكه، وقيوميته في ملكوته ما تقف أمامه نواميس الكون عاجزة، ومقاييس الخلق جامدة، وعقول البشر واجمة؛ فالأرض قبضته، يطويها ما شاء، كيف شاء، متى شاء، لمن يشاء، والزمان طوعه، يقبضه ويبسطه، ويسيِّره ويوقفه، فليضرب الناس أكباد إبلهم شهرًا وشهرًا ليقطعوا ما طُوِي للنبي ﷺ في جزء من الليل بقدرة الذي أسرى به، ليضربوا ما يضربون، بقدرة محدودة، وطاقة مقيدة، لكنّ طلاقة القدرة تسري بالنبي ﷺ بإرادة فوق الزمان والمكان والقوانين إسراء يضفي على النبي ﷺ التكريم والتشريف والاحتفاء (إنه عبده) مسرّيًا عنه، مجلّيًا له من آياته الباهرة، كاشفًا له طوايا النفوس، فيطفو زَبَدُ التكذيب جفاءً، نافيًا عن كتائب الحق من ارتد ونكص على عقبيه من الضِّعَاف الخِفاف الذين يعبدون الله على حَرْف، وتقرّ درر التصديق ثباتًا، وتتألق إشراقات الصديقية مخترقة غيوم التكذيب، ويصدح صوتها المدوي الذي يُخرس همهمات الباطل ليقول: لئنْ كان قاله لقد صدق، وهنا ترسخ دعائم التأييد للدعوة، وتظهر عُمُدها، ويهوِي زيف النفاق وتطهّر منه قافلة النور لتنطلق بالمخلصين إلى حيث أراد الله لها من الرفعة والفتح.

ويمثّل هذا درسًا يضاف لدروس الإسراء لتقوم الدعوة على أسس ثابتة من الحق، ودعائم راسخة من اليقين، وأصول راسية من التمحيص ورجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

يسجل البيان القرآني المعجز هذا الحدث الجلل في هذا الإشراق الذي ينبثق استهلاله بما يقرر جلال الله، وتنزهه، وقدسيته، بما يُعجز كل القوى وكل العقول (سبحان) فلا مقاييس، ولا معايير، ولا قوانين، إن خالق كل هذا المنزه عن كل عجز هو الذي أسرى بعبده المصطفى، ورسوله المجتبى من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، الذي بارك حوله أنهارًا وأشجارًا، وثمارًا وأزهارًا، وأنبياء وملائكة، في جزء من الليل ليريه بعظمته من آيات قدرته، ومشاهد قوته، إنه وحده السميع لما يهرف به من لا يعرفون فيكذّبون، ويصدح به من يؤمنون فيصدقون،

ويرى ما يفعله هؤلاء وأولئك، ولا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء.

الموضع الرابع: قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ (الكهف: ١)

يوحي الاستهلال بالحمد بفيض من النعم، وغدق من الكرم، ينبه لتلقيه، ويهيئ لاستقباله، ويصاحب الحمد إنزال الله على عبده محمد ﷺ القرآن أكبر منَّةٍ من الله لعبده، معجزة مؤيِّدة لرسالته، مصدقة لدعوته، ومنة لأمته، هديًا ونورًا ورحمة وتعبدًا وتقربًا، ورفعةً في الدرجات، ودستورًا للحياة وشفاءً لما في الصدور، وشفيعًا لأصحابه، كتابًا مستقيمًا، لا التواءَ في المنهج، ولا ميلَ عن الحق، ولا انحراف عن الصدق، ولا تناقض ولا تعارض، ولا اختلاف، ولا اختلال، ولا اختلاط، ولا التباس ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)

وفي هذا ما يدعو إلى التقرب إلى الله بالحمد له -جل وعلا- على هذه النعمة القرآنية الكبرى التي أنعم بها علينا.

الموضع الخامس: قال الله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)

ولا يزال القرآن الكريم منبع الخير، ومصدر البركات، ومعين الرحمات، جلّ الذي فاض خيره على خلقه، وعمّ عطاؤه، وزاد برّه، ودام إكرامه، وكثر إنعامه فمنّ علينا من هذه الفيوضات الإلهية بتنزيل القرآن الكريم هديًا فرّق به بين الحق والباطل، والخير والشر، والنور والظلمات، ونزل مفرقًا وفق الأحداث على عبده محمد ﷺ لينذر به الإنس والجن، ومن بلغه القرآن كما قال سبحانه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ (الأنعام: ١٩)

مُحذِّرًا من مخالفة الحق، ومجانبة الصدق، والانزلاق إلى الضلال، والانحراف عن الهُدى، حرصًا عليهم ليأمنوا، وليكونوا في وقاية وحفظ، وذلك أول مفاتيح الخير لاستقباله ومعايشته، فيكون بعد ذلك التبشير؛ فالسلامة من الشرّ وحدها خير، ومن ثم كان الإنذار.

وفي مصاحبة تنزيل القرآن الكريم للبركة ما يلفت إلى عِظم ما أنعم الله به علينا هدى ورحمة، مما يؤكد الالتزام به عملًا واهتداء، وتلاوة وتدبرًا، ودستورًا ومنهجًا.

الموضع السادس: قال الله تعالى:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٣٦)

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾: بلى، فإن الله كافٍ عبده محمدًا ﷺ شرّ من يعاديه، ومكر من يجافيه، وكيد من يعانده؛ فقد كفاه

المستهزئين فقال سبحانه:

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ (الحجر: ٩٥)

ووعده جل وعلا كفايته سوء المخالفين، وشقاق المعرضين ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٣٧)

فإنْ خوّفك المشركون بمن اتخذوهم آلهة من دون الله من هذه الأصنام أنْ تمسك بسوء إنْ عِبْتها، فهذا هو الضلال المبين؛ إذ كيف ينالك أذى من أيّ عدو وأنت في كنف الله الذي كفاك، وآواك، ورعاك، وحماك؟!

إنّ قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ مقدمة تُرسي الأساس الذي يؤكد دوام حفظ الله رسوله «رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثًا وباطلًا»[٩] وضلالاً، ومن يخزه الله فيضلّه عن الهدى فليس له من مرشد يدلّه على الخير، ويوجهه إلى الحق.

الموضع السابع: قال الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (النجم: ١٠)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «المعنى: فأوحى «الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى»[١٠].

وتفخيمًا وتنويهًا بعظمة ما أوحاه أبهمه، وقد ذكر أن ما أوحاه هو ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى: ٦)

إلى قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح: ٤)

وقد صاحب فرض الصلاة هذا الإيحاء في حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- في صحيح مسلم في (باب الإسـراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات)، وقد جاء في هذا الحديث الطويل -بعد ركوب البراق إلى بيت المقدس-: «ثم عرج بنا إلى السماء... فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة... فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى -عليه السلام-، حتى قال: يا محمد إنهنَّ خمسُ صلواتٍ كلَّ يوم وليلةٍ، لكلِّ صلاةٍ عشرٌ، فذلك خمسون صلاة»[١١].

والصلاة معراجُ المؤمنين، التي فرضتْ في السماوات ليلة المعراج لها رفيع المنزلة في البناء الإسلامي، والصفاء الإيماني، ومن ثمّ صاحبت هذا الإيحاء، يقول ابن عطية: «وفي قوله تعالى: ﴿ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ إبهام على جهة التفخيم والتعظيم والذي عُرف من ذلك فرض الصلاة»[١٢].

الموضع الثامن: قال الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحديد: ٩)

(٩) مفاتيح الغيب، للرازي ٢٦/ ٢٨١.
(١٠) المحرر الوجيز، لابن عطية ٨/ ١١٠.
(١١) مسلم، حديث رقم (٢٥٩).
(١٢) المحرر الوجيز ٨/ ١١٠.

هو جل وعلا وحده الذي ينزل على عبده محمد ﷺ القرآن الكريم آيات واضحات هاديات ليخرجكم بها من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن متاهات الضلال إلى واحات الهدى، ومن عمايات الغيِّ إلى إشراقات الرشد بفضله ومنِّه، كما قال سبحانه: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١)

وهذا إنعام من الحق سبحانه، أفاض به عليكم رأفة ورحمة بكم، فإنه بكم رءوف رحيم.

الموضع التاسع: قال الله تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (الجن: ١٩)

عبد الله هو النبي محمد ﷺ حينما قام يدعو الله في صلاة الفجر قارئًا القرآن الكريم مقتديًا به أصحابه -رضي الله عنهم- ركعًا سجدًا، في مشهد إيماني راقٍ، راقَ للجن حين أتوه «فاستمعوا القراءة كادوا يكونوا عليه لبدًا، أي: يزدحمون عليه متراكمين تعجبًّا مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به قائمًا وراكعًا وساجدًا، وإعجابًا بما تلاه من القرآن؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله»[13].

(١٣) مفاتيح الغيب ٣٠/ ١٦٣.

الموضع العاشر: قال الله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ (العلق: ٩، ١٠)

حينما يُنهَى عن المنكر فإشراقة الحق، واستقامة الفطرة، أما عندما يُنهَي عن المعروف فمعاندة الصدق، ومعاداة الهدى، والطغيان والحمق، وما أعمى أبا جهل الذي كذّب وتولى، وراح يتوعد محمدًا ﷺ إن رآه يصلي ليطأنَّ رقبته، عَتَهٌ بيِّن، وحماقة هَوْ جَاء يتعجب منها، أرأيت ذلك الذي ينهى من تجَلَّتْ فيه أسمى معاني العبودية لله كائنًا على الهدى، آمرًا بالتقوى إذا قام لله مصليًا؟!

فماذا حلَّ بالناهي المتوعِّد الطاغية، المكذِّب المتولِّي عن الحق؟

يروي لنا أبو هريرة -رضي الله عنه- فيقول: «قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلِّي ليطأ على رقبته قال: فما فَجِئَهُمْ منه إلا وهو يَنكُصُ على عَقِبَيْه، ويتَّقي بيديه، قال: فقيل له: ما لَكَ؟ قال: إنَّ بيني وبينه لَخَنْدَقًا من نارٍ وهَوْلًا وأَجْنِحَةً، فقال رسولُ الله ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَا خْتَطَفَتْهُ الملائكةُ عُضْوًا عُضْوًا»»[14].

(١٤) مسلم، حيث رقم (٢٧٩٧).

ضوء عام:

وبعد معايشتنا أفياء البيان القرآني مصورًا مقام العبودية التي اتصف بها الرسول ﷺ، فقد تجلت لنا عدة لفتات، أهمها:

أولًا: جاءت العبودية لله متصفًا بها الرسول ﷺ في أرفع المقامات، وأسمى الأحوال، وأعلى المواقف، وأعظم المواطن؛ حيث احتوتها السياقات الآتية:

١- التحدي والتعجيز عن الإتيان بسورة من مثل القرآن الكريم، فكان الإعجاز وكانت قوة الحجة في الموضع الأول.

٢- التأييد، والغَلَبَة، والنصر، في الموضع الثاني.

٣- التكريم، والاحتفاء، في رحلة الإسراء، في الموضع الثالث.

٤- التشريف بتنزيل القرآن الكريم، في المواضع: الرابع، والخامس، والثامن.

٥- الكفاية، والرعاية، والحفظ، في الموضع السادس.

٦- الوحي، ورحلة المعراج، في الموضع السابع.

٧- العبادة، والصلاة، في الموضعين: التاسع، والعاشر.

وكلها تؤكد القوة، والتأييد، والنصر، والمنعة، والقرب، بما يحقق العزة، والسيادة، والتكريم.

ثانيًا: اكتسبت (عبْد) مما أضيفت إليه السموّ والتشريف؛ حيث أضيفت في الموضعين: الأول، والثاني، إلى (نا) الدالة على كمال العظمة ﴿عَبْدِنَا﴾ فأضفت التشريف، والتَّجِلَّة، ورفعة المقام عند الله لرسوله ﷺ، وأضيفت في المواضع: الثالث، والرابع، والخامس، والسادس، والسابع، والثامن، إلى الضمير العائد على الحق سبحانه (عبده) بما يوحي باللزوم والخصوص، حتى كاد أن يتفرد بها ﷺ، ويا له من شرف، ويا لها من منزلة، وفي الموضع التاسع أضيفت إلى لفظ الجلالة (الله): (عبد الله)، حيث الدعوة واستماع الجن للقرآن الكريم، وبلاغ التوحيد الجامع للثقلين، المؤكد جوهر الدعوة ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ (الجن: ٢٠)

فإذا جاءت (عبدًا) في الموضع العاشر نكرة منونة بلا إضافة، أكسبها التنكير والتنوين التفخيم والتعظيم، والبلوغ في كمال العبودية كل مبلغ، ففيها «تفخيم لشأن النبي -عليه السلام- ... إنه مع التنكير معرّف»[١٥].

وهكذا تتضافر كل المعطيات البيانية باختلاف صورها على إثبات ما يليق بهذه العبودية الخالصة لله من رسوله ﷺ من الإكبار والإعظام.

ثالثًا: من القيم البيانية التي تَجلَّى أثرها: بلاغة الالتفات عدولًا من أسلوب إلى آخر، لبُعْد يثري ما يقتضيه السياق من إيحاءات

(١٥) مفاتيح الغيب ٣٢/ ٢٢٢.

المعنى، وظلال الدلالة، جاء ذلك في موضعين:

١- في الموضع الثالث: حيث عدل عن أسلوب الغيبة ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى أسلوب التكلم ﴿بَٰرَكْنَا﴾.. ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ «لتعظيم الآيات والبركات»(١٦).

وقد ذكر ابن عاشور من لطائف الالتفات هنا «أنه لما استحضرت الذات العلية بجملة التسبيح، وجملة الموصولية، صار مقام الغيبة مقام مشاهدة، فناسب أن يُغيّر الإضمار إلى ضمائر المشاهدة، وهو مقام التكلم»(١٧).

٢-في الموضع السادس: حيث عدل عن ضمير الغيبة في ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ إلى ضمير المخاطب في ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾، ونكتة هذا الالتفات تمحيض قصد النبي ﷺ بمضمون هذه الجملة، حيث كان مضمون الجملة الأولى التي اشتملت على ضمير الغيبة ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ موجهًا إلى المشركين(١٨).

(١٦) نظم الدرر، للبقاعي ٤/ ٣٢٩.
(١٧) التحرير والتنوير ١٥/ ٢١.
(١٨) راجع السابق ٢٤/ ١٣.

رابعًا: في الموضعين: الرابع والثامن، قُدِّم المنزل عليه ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ على المنزَّل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تعظيمًا لعبده وتشريفًا لمقامه عنده، واختصاصه بإنزال القرآن عليه، وإنعامه به عليه، ولما كان المنزَّل (الفرقان) هو محور الحديث في الموضع الخامس- ومن ثم سميت السورة باسمه (سورة الفرقان)- قُدِّم المنزَّل فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، حيث تناولت السورة ظلم وزور الكافرين بتقولهم على القرآن الكريم والرد عليهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٤ - ٦)

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد؛ مُعلِّم الناس الخيرَ، الحبيبِ المحبوبِ، وعلى آله وصحبه.